مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَظَفَ

تأليف

الدكتور فهد بن عبد الله السعيدي

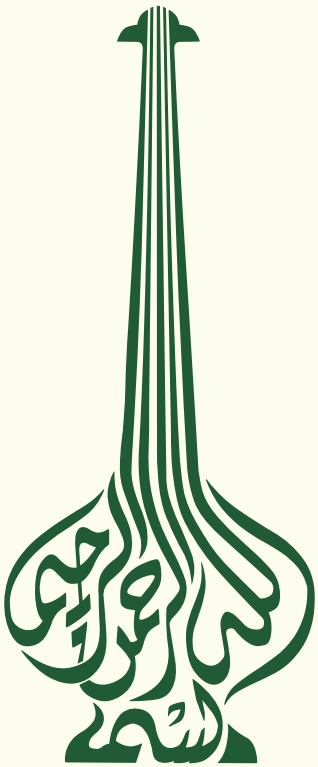
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

عدم إيفاء الرسالة بوصف الله تعالى ٨
وجوب معرفة قدر الله حقَّ قدره ٩
الله قبل خلق الخلق ١٩
الله حين خلق الخلق ٢٣
الله بعد خلق الخلق ٣٣
الله في يوم القيامة ٥٢
الله بعد يوم القيامة ٥٧

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧ [الزمر:٦٧].

عن جبير بن مطعم، قال: أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أعرابي، فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**ويحك أتدري ما تقول؟**» وسبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «**ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله، إن عرشه على سماواته لهكذا**» وقال بأصابعه مثل القبة عليه «**وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**»[1].

---

(١)سنن أبي داود (٧/ ١٠٧)رقم ٤٧٢٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله ملك العالمين، الحمد لله إله العالمين، سبحانه تعالى، جلَّ جلاله، وتقدست أسماؤه.

حَمَدَ نفسه ولن يبلغ أحد من الحمد مثلما حمد نفسه جَلَّ جَلَالُهُ.

والصلاة والسلام على رسول الله الذي حمد ربه أعظم حمد في الدنيا، وسيحمده يوم القيامة بمحامد لن يحمده أحد من الخلق مثلها.

وأصلي وأسلم على رسل الله أجمعين الذين هم أئمة الحامدين الشاكرين؛ وعلى من تبعهم واقتدى بهم إلى يوم الدين.

وبعد: اعلم أخي المسلم وأختي المسلمة أن كل معصية حدثت من كفر ونفاق وفسوق، فإن مردّها إلى سبب واحد، وهو أن الفاعل في هذه الأمور لم يقدّر الله حق قدره.

واعلم أيها المسلم الذي يعصي الله تعالى أنما المعصية تأتي حين يفقد العاصي تعظيم لله تعالى.

فإن وقعت في معاصٍ ولا معصوم منها فلا تقنط ولا تخف ما دمت لله مستغفرًا؛ فإن الاستغفار بعد المعصية من تقدير الله حق

قدره؛ فربّ توبة بعد معصية تقرّبك إلى الله أكثر. ومع ذلك فلا تغتر؛ بل كن على حذر؛ فإن من تعصيه لا يبالي بك، أكنت من أهل الجنة أم من أهل النار؛ فاحذر مكره، فربّ معصية فتحت لك أبواب معاصٍ أكبر وأكثر.

وهذه رسالة مختصرة تشوق العابد إلى ربه عَزَّوَجَلَّ، وتجعل العبد يعظم ربه حق تعظيمه؛ ويقدره حق قدره، وتعرف العبد بربه فيعرفه كما وصف نفسه وكما وصفه رسل الله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

لعلي أكون أول من ينتفع بها؛ أتقرب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولعل الله أن يغفر لي بها ذنوبي، ويرحمني بها في الدنيا والآخرة، فرحمته أعلى مرادي، ومغفرته أسمى مطالبي.

فاللهم غفرًا؛ فاللهم عفوًا، فاللهم عيشة سوية وخاتمة رضية وميتة علية.

عدم إيفاء الرسالة بوصف الله تعالى

لن يبلغ أحد من الخلق وصف الله عَزَّوَجَلَّ حتى المقربون من الملائكة والرسل؛ فإن الله وصف نفسه بوصف فيه من المعاني الكثيرة التي لا يستوعبها أحد من الخلق بل الخلق كلهم؛ وكذا قد استأثر بأسماء حسنى عنده لن يبلغها علم الخلق.

وعليه فهذه الرسالة لن توفي شيئًا من وصف الله تعالى؛ بل ولن توفي بيان صفة واحدة لله تعالى، لكن عساها تنفع العباد فيتأملوا في بعض وصف ربهم؛ وبعض وصف الله أبلغ من وصفٍ شاملٍ لأحدٍ من خلقه؛ فإن صفات الله يكفي تأمل بعض منها في معرفة الله تعالى وقدره حق قدره.

فلو تأملت في اسم الله الرحمن وفي صفة الرحمة حق التأمل وحق التدبر؛ فإن ذلك يورث في قلبك عظيم الإيمان بالله؛ ويورث في جوارحك عظيم الإحسان في العمل.

ولهذا كان من الخطأ البين أن تكتب رسائل بعناوين توهم الإحاطة بوصف الله تعالى؛ فإن الله كما لا يدرك ذاته كذلك لا تدرك كل صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وجوب معرفة قدر الله حقَّ قدره

اعلموا معشر المسلمين أن أعظم الفروض الواجبة عليكم أن تقدّروا الله حق قدره، حتى يكون قدره يملأ القلب والروح، ويكون أثره ظاهرًا على الجسد وجوارحه، في الليل والنهار، والسر والجهار .

ومما يعين على قدر الله تعالى حق قدره أمور ذكرها الله تعالى في ثلاث آيات وذكر قبلها وبعدها آيات؛ حق على كل مؤمن أن يتدبرها.

الآية الأولى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]؛ ومفهوم الآية أن من علم أن الله تعالى لن يترك عباده هملاً بل يرسل إليهم الرسل وينزل عليهم الكتب؛ فمن علم هذا واعتقده فقد قدر الله حق قدره؛ ومن كان على خلافه فقد اتهم الله بأنه يفعل الباطل وأنه يخلق الشيء فيتركه دون هداية له للحق. وهذا مستحيل في حق الله تعالى.

الآية الثانية: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[الحج:٧٤]؛ فمن استحضر قوة الله التي هي أعظم قوة وما من قوة إلا وهي مستمدة منها؛ وكذا من استحضر العزة لله والعزيز هو الغالب الذي لا يُغلب؛ فقد قدر الله حق قدره؛ ولهذا جمع الله بين هذين الاسمين (القوي العزيز) ليكون الكمال له في القوة والعزة؛ فكم من إنسان قوي لكنه يُغلب؛ وكم من إنسان يغلب غيره بحيلة وخدعة أو غير ذلك وليس بقوي.

فله القوة الدائمة وله العزة الدائمة فمن استحضر هذا دائما تحول إلى التقاة ولو كان قبل ذلك من أكبر الطغاة.

وقد جاءت هذه الآية بعد ضرب المثل بعجز الأصنام التي لا تستطيع أن تستنقذ ما يأخذه الذباب من فوقها؛ فأخبر تعالى أن من جعل هذه الأصنام الضعيفة مشاركة له في العبادة فإنه لم يقدر الله حق قدره؛ ولهذا قال في آخر الآية{إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} فلمَ تتركون الإخلاص لله القوي وتشركون معه غيره الضعيف ممن لا يملك لنفسه دفع أذى الذباب عنه؟!.

الآية الثالثة: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧].

فذكر الله هنا ما يجعل المخلوق يقدره حق قدره؛ فذكر أن السبع الأراضي الشاسعة؛ والسبع السماوات الواسعة ستكون يوم القيامة في قبضته ومطويات في يمينه!.

أي أنه تعالى كبير وكل المخلوقات صغيرة أمامه.

وهو عظيم وكل المخلوقات دنية أمامه.

وهو محيط وكل المخلوقات منزوية أمامه.

وهو واسع وكل المخلوقات ضيقة أمامه.

فمن استحضر مشهد هذه الآية وتأملها وجل قلبه وخضعت جوارحه لله رب العالمين.

وهنا أمر ينبغي التنبيه عليه: وهو أن بعض الناس حينما يستحضر وجود الله ويستحضر مراقبته له؛ فكأن الله عنده في باب من أبواب السماء قد أحاط به بعض مخلوقاته؛ وهذا أمر باطل جدًا؛ فإن الرب الذي تدعوه وتصلي له يده أكبر من كل مخلوقاته؛

"فإنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك"[1].

فاستحضروا يا أهل الإسلام عظمة ربكم خاصة في الصلاة؛ ولهذا شرع الله لكم الذكر الذي تنتقلون به بين أركان الصلاة وواجباتها أن تقولوا: (اللَّهُ أَكْبَرُ) لأجل أن يأتيكم الخشوع والخضوع له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنك لو وقفت أمام مخلوق أكبر منك لهبته وخشيته وكلما كان المخلوق أكبر كلما زادت خشيتك له وخوفك منه؛ فكيف بالله جَلَّ جَلَالُهُ الخالق الذي هو أكبر من كل الخلق.

ولهذا حينما تجلى جبريل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على هيئته الحقيقية صعق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

كذلك اندك الجبل حينما تجلى له قدر طرف أصبع[2] من الله عَزَّ وَجَلَّ فاندك حتى صعق موسى من هول اندكاك الجبل.

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٤٨) رقم ٧٥١٣.

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٤٢٩).

فالله صنع كل شيء وجعله دونه في كل شيء؛ بخلاف صناعات البشر فكم يصنع الإنسان أشياء كثيرة تكون أكبر منه بآلاف الأضعاف؛ لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل كل خلقه صغيرًا تحته وهو محيط بخلقه لأنهم الغاية في الصغر وهو الغاية في الكبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكن أيها المسلم مستحضرًا لهذه الصفات لله على الدوام فإنها تزيل عنك غشاوة الغفلة؛ وتزيدك شدة المراقبة لله؛ وتحس الأُنس به فتزول عنك الوحشة.

حيث إن عظمته تجعلك قريبًا منه، وقربه منك يورث الأُنس، ولا شيء يُؤنس أهل الإيمان مثل الله تعالى. لا شيء يؤنسهم مثله، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، لا شيء يؤنسهم مثله، وهو أرحم بهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم، والخلق أجمعين. أما تعلم أن أُنسك بالله يكفيك عن أُنس من سواه؟ أن تؤمن بقربه منك حتى توقن أنه أقرب إليك من حبل وريد قلبك، فإذا أحس قلبك بهذا المعنى الإيماني الرفيع، تركه الشيطان، ولم يجرِ منك مجرى الدم.

وهذا المعنى الإيماني لقرب الله منك يأتي حينما تعلم أن الله كبير لن يستطيع كل الخلق أن يعرفوا قدر عظمة الله وسعته وكبره وإحاطته .

وما من صفة من صفات الله أردت أن تستحضرها فاربط معها هذه الأسماء الأربعة وصفاتها (الكبير، العظيم، الواسع، المحيط) مع الأسماء الأربعة المذكورة في قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد:٣]؛ فإنك إذا استحضرتها عند ذكر صفة من صفات الله مثل صفة الوجه؛ فإنك لن تعطل معنى هذه الصفة لأن وجه الله عظيم؛ فإذا كانت أصابعه تسع المخلوقات منها السماوات والأرض؛ فلن تستطيع هذه المخلوقات أن تتخيل وتدرك أصبع الله تعالى؛ لأن الأصبع محيطة بهذه المخلوقات كلها؛ فكيف بوجه الله تعالى الذي هو أكبر من أصابعه؛ وزال بهذا تشبيه الله بخلقه لاستحالة الإحاطة بصفة واحدة من صفات الله فكيف بصفاته بل فكيف بالله عَزَّوَجَلَّ.

وزال تعطيل معاني الأسماء والصفات لله لهذه العلة نفسها.

فالتشبيه والتعطيل جاء من وسوسة إبليس بأن هؤلاء يحيطون بالله وبصفاته حتى خرجوا ما بين مشبه مهووس، وما بين منكر منكوس.

لأنهم تكلموا بما لا يُدرك تمامًا من أي مخلوق كان ولو كان جبريل وإسرافيل وميكائيل وحملة العرش الكبار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : **«إن الله جل ذكره أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه مثنية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا؛ فيرد عليه: ما يعلم ذلك من حلف بي كاذبا»**[1].

فهذا أحد حملة العرش طوله أكثر من مسيرة خمسين ألف سنة؛ يقول هذه الكلمة "سبحانك ما أعظمك ربنا" وذلك لأنه صغير أمام خالقه وإن كان عظيما أمام أكثر المخلوقات.

فهذا الملك العظيم يقول هذه الكلمة دائما ونحن الصغار لا نقولها إلا بالنادر وإذا قلناها لا نستحضر معناها؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

---

(١)المعجم الأوسط (٧/ ٢٢٠)رقم٧٣٢٤.

فالآية هذه جعلت أبصار جميع المخلوقات في جهة واحدة، وأنها لو اجتمعت كلها فلن تُدرك الله تعالى. فتأمّل معي: أبصار الملائكة والجن والإنس وكل شيء يُبصر، لو اجتمعت أبصارهم، لم يُدركوا خالقهم! إنه أمر مهيب والله.

وقال في آخر الآية: (وهو اللطيف الخبير)، فهو يُدرك ظاهر المخلوقات وخفاياها وبواطنها، على عكس إدراك أبصار المخلوقات التي ترى ظاهر الشيء ولا ترى باطنه.

وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

ثم اعلم -أخي وأختي- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكثر من وصف نفسه في كتابه بصفات كثيرة، ونوع في أساليب وصفه بأساليب لا تعد ولا تحصى، وذكر أسماءه الحسنى وكررها وختم بها كثيرا من آياته وذكرها في مقدمة الآيات وأوسطها؛ وفي صغار السور وكبارها، وفي صغار الآيات وكبارها.

وأعظم اسم هو لفظ الجلالة (الله) حيث كرره في كتابه قريبًا من ألفي مرة.

وهذا الاسم هو السر الأول لبركة القرآن الكريم؛ فإن اسم الله ما خالط شيئا إلا باركه وكلما كثر ذكره زادت البركات.

وقد شاء الله أن تُردَّ جميع الأسماء الحسنى له إلى هذا الاسم العظيم؛ فهو أصلها وأساسها.

وهو الاسم الخالص الذي لم يشاركه فيه أحد ولن يشاركه فيه أحد.

أعرف المعارف وأحسن لفظ وأفصح الحروف؛ فأفضل الحروف هي ما جاءت في لفظ (الله) فلا أحسن منها والله .

بل إن أكثر حروف القرآن الكريم ذكرًا هي الألف تكررت في القرآن الكريم ما يقارب تسعة وأربعين ألف مرّة، ثم اللام تكرر ما يقارب أربعة وثلاثين ألف مرّة، ثم الميم تكرر ما يقارب تسعة وعشرين ألف مرّة، ثم الهاء تكرر ما يقارب سبعة وعشرين ألف مرّة.

فالألف واللام والهاء؛ لأن حروف لفظ الجلالة (الله)، والميم كذلك جاء بهذا العدد الكبير؛ لأنه الحرف الوحيد الذي حُقَّ له أن يكون مع لفظ الجلالة في كلمة واحدة؛ وذلك في قوله تعالى: (اللهم).

فانظر إلى عِظَم فضل هذه الأحرف في القرآن على سائر الحروف، والتي ربما بلغت أكثر من ثلث الحروف. فقد بلغ تكرار هذه الحروف قريبًا من مئة وأربعين ألف مرّة، والقرآن كل عدد حروفه مكررة ما يقارب ثلاثمئة وثلاثين ألف مرّة؛ أي أن أربعة أحرف تبلغ أكثر من ثلث القرآن الكريم، وباقي الأحرف أقل من الثلثين، وذلك لبركة اسم الله تعالى.

الله قبل خلق الخلق

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ "كان الله ولم يكن شيء قبله". فهو أول لا أول قبله؛ وقد كان كاملاً قبل أن يخلق الخلق، له الكمال المطلق والصفة العليا، ولم يزدد بخلقه غنى إذ لم يكن محتاجًا لهم؛ فلا حاجة له في كل خلقه من سماوات وأرض وملائكة وجن وإنس ونار وجنة وكل شيء خلقه وقدره.

وكانت له الأسماء الحسنى كلها قبل أن توجد أفعالها في الخلق؛ فكان غفورًا قبل أن يوجد من يعصيه ويستغفره فيغفر له، وكان رحيما قبل أن يوجد الخلق الذي وسعتهم رحمته.

وكان عليًا أعلى قبل أن يوجد الخلق الذين هم أسفل منه.

كان كبيرًا واسعًا عظيما محيطًا قبل أن يوجد خلقه الذين هم لا شيء أمامه.

لم يكن مستوحشا حتى يخلق من يأنس بهم؛ بل قد كمل في كل شيء جَلَّ جَلَالُهُ.

فالكل يأنس به ومحتاج إلى الاستئناس به.

إذًا فالله سبحانه كان أَحَدًا فَرْدًا وِتْرًا لا ثاني له؛ ولا ند له، ولا شريك له؛ ولا والد له ولا ولد له.

لا نقول غير هذا ولا نسأل أنفسنا سؤال الشيطان لابن آدم "فإنه لا يزال يسأل ابن آدم من خلق كذا ومن خلق كذا حتى يقول له من خلق الله". فهذا السؤال ضرر على صاحبه؛ ليس لأنه سؤال فيه تدخل فيما لا علم لنا فيه؛ بل لأنه سؤال خبيث يخالف أوثق علم عرفه البشر وهو أن الله الأول الواحد الذي يستحيل أن يكون شيء قبله.

فأعلى العلوم أنه هو الأول.

وأعلى المستحيلات أن يكون شيء قبله.

نعوذ بالله أن نقول غير هذا أو أن تذهب عقولنا ونقول بغيره أو نشك فيه؛ لهذا سلمنا وبه آمنا؛ لأنه الحق التام والصواب الكامل من كل الوجوه.

وكان أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فقال للقلم اكتب فكتب مقادير الخلائق كلها قبل خمسين ألف سنة من تنفيذها ووقوعها؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يقول: " كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" رواه مسلم(١).

ولم يؤخر ربنا تنفيذ تلك المقادير لعجز أو كسل أو عدم وجود مساعدين.

فتأمل؟!

كم مكثت هذه المقادير مكتوبة قبل أن يخلق الخلق؟!

وهذا يدل على صبر الله تعالى وأنه لا يعجل على شيء فـسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يوجد في هذه المقادير الأنبياء والملائكة ولم يعجل على وجودهم؛ لم يعجل على خلقهم ليسمع تسبيحهم له وتحميدهم وتمجيدهم له والخشوع له.

لم يعجل على خلقهم فيكفر بعضهم فينتقم منهم؛ لتظهر قوته وسطوة عذابه فيهم.

لأنه مستغنٍ عن الجميع؛ تأمل معي وتفكر لهذه المدة بعد أن

---

(١)صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٤) (٢٦٥٣).

كتب وقدر ووضع مقادير هذا الكون كله منذ بدايته إلى نهايته؛ تفاصيله كلها حتى سقوط ورق الشجر؛ ثم يتركه مدة زمنية طويلة دون إنفاذ!!

ما أعظم غنى ربنا وما أسمى تكبره عن خلقه، وما أعلا عزته!

إن العقل يقف أمام هذا الأمر عاجزاً والأقلام تقف عاجزة فلن توفي صورة هذا المشهد العظيم.

ومما يشبه هذا ترك الله للخلق في القيامة قبل الحساب خمسين ألف سنة؛ ليريهم أنه كامل الغنى وأنه لا يعجل على إدخال أهل الجنة الجنة فيمدحونه؛ ولا يعجل على انتقامه من أعدائه.

فكما بدأ أمره الأول وهو الدنيا بخمسين ألف سنة؛ كذلك سيبدأ أمره الثاني بخمسين ألف سنة.

وسيأتي في آخر هذه الرسالة الكلام عن مشهد يوم القيامة.

الله حين خلق الخلق

ولما جاء سبحانه لتنفيذ ما قدره وأحكمه لخلق المخلوقات التي ستجري عليها تفاصيل ما في اللوح المحفوظ؛ لم يعجل ويخلقها مرة واحدة رغم أنه قادر على ذلك فلو شاء لخلق كل شيء بلمح البصر أو أسرع بنفس الإتقان والإحكام؛ فلا شيء يعجزه ولا أحد يمنعه، فخلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام. ليعلم العباد أن لهم ربًا غير مستعجل عليهم ولا متلهف لهم؛ فإنه لا يبالي بهم.

وكان أكرم خلقه عليه آدم فلم يخلقه أول الخلق ولا أوسطه بل خلقه في آخر اليوم السادس في آخر ساعة منه.

فتأمل متى خلق خليفته في الأرض؛ فقدم كل شيء عليه حتى أنه لم يكن شيئًا مذكورًا عند المخلوقات.

وهذا يدل على إمهال الله تعالى وكمال صبره؛ فلم يستعجل على وجود أكرم الخلق عليه؛ فكان آدم آخر من خلق.

كذلك جعل أكرم بني آدم عليه وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

آخر الأنبياء وخاتمهم ومن جاء قبل الساعة.

وكذلك أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جعلها الله آخر الأمم مع أنها أكرمها عليه.

مع أن الطبع في البشر أنهم يجعلون أكرم ما عندهم في الأول، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل أكرم خلقه عليه آخرًا في هذه الحياة وسيجعلهم يوم القيامة أول خلقه.

فلا تحسب يا أخي أن الله إذا أخر لك أمرًا أنك لست بكريم عليه.

وأكرم شيء يرزقك الله إياه الخاتمة الحسنة فجعلها الله لك في آخر عمرك فكم من عامل في الشر ختم الله له بخاتمة حسنة.

ولما خلق الله هذا الخلق العظيم لم يغفل عن شيء، لم يفته خلق شيء؛ حتى أنه خلق البعوض وما دون البعوض وخلق من صغار المخلوقات ما لا تعد ولا تحصى.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون:١٧]

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله، فإن الله لو

كان غافلا شيئا لأغفل البعوضة والخردلة والذرة»[1].

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كم خلق من المخلوقات ممن هي أكبر من الجن والإنس وأقل عددا منهم؛ وكم خلق من المخلوقات ممن هي أصغر من الجن والإنس وهي أكثر عددا منهم!.

ليريهم سبحانه أن له خلقًا يسبحونه ويخضعون له وهم الأكبر والأكثر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن:٢٤]ليعلمهم أنهم أضعف خلقه على الإطلاق.

ليعلمهم أنه رغم عبادة هذه المخلوقات لله فإنهم سيرجعون يوم القيامة ترابًا؛ ويقذف الحجارة والشمس والقمر في جهنم رغم طاعتها له وخضوعها له.

فقد كرم بني آدم أيما إكرام لكن أكثرهم لم يقبلوا كرامة الله لهم!.

---

(١)تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٣٧) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (٢/ ٥٣٤).

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء:٧٠]

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ " خَلَقَ اللهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ، كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا أُبَالِي وَقَالَ: لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى: إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي "(١).

وهذا الحديث فيه عظيم غنى الله عن عباده؛ حتى الأنبياء يدخلون جنته ولا يبالي بذلك أي أن دخولهم الجنة لم يزد في كماله ولا في جلاله وغناه. فتأمل حتى دخول جنته أعداد لا تحصى يدخلونها دون مبالاة منه، كذلك دخول أكثر الناس والجن النار سيكون دون مبالاة منه تعالى.

ولما صنع الله هذه المخلوقات أحكمها، وخلقها فأحسنها،

---

(١)مسند أحمد (٤٥/ ٤٨١)رقم٢٧٤٨٨.

فكل شيء خلقه الله لو تأملته لوجدت فيه من الإتقان في الخلقة ما لا معقب عليه فيها.

فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا صنع شيئًا عمل فيه من العجائب ما إذا تأملها العاقل لانبهر أمامها، ولو كان هذا المخلوق في الظاهر قبيحًا.

وقد نَوَّع الله المخلوقات فأبدع فكم من صنف قسمه أنواعًا كثيرة فخالف بينها في صفات كثيرة؛ فعلى سبيل المثال الغنم قسمها إلى صنفين ضأن ومعز وكل صنف له أنواع كثيرة حتى تجد في البلد الواحد أنواعًا كثيرة؛ وكلها مندرجة تحت أصل واحد وهو الغنم.

وكذا نَوَّع خلقه في الجن والبشر والأشجار والثمار والطير والسمك وجميع الحيوانات والحشرات حيث جعلها أصنافًا لا يعدها مخلوق ولا يحصيها غير الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذلك أن الله تعالى ما غفل عن شيء يخلقه، ولن يترك هذه المخلوقات دون رعاية ودون غاية من خلقها؛ فإنها تسبحه في كل حين لا تمل ولا تكل؛ إلا كثيرًا من الجن والإنس ملوا وتركوا أمر

الله وراء ظهورهم طغيانًا وعداوة لله عَزَّوَجَلَّ.

وإن كان العصاة من الجن والإنس هم الأكثر؛ فإنهم على الحقيقة قليلٌ جدًا أمام مخلوقات الأرض التي تطيع الله ولا تعصيه.

هذا وهم قليل أمام مخلوقات الأرض فما بالك بمخلوقات السماوات المطهرة من المعاصي؛ فإنهم كثيرون أكثر من عدد الحصى.

فماذا عسى نكون أمام المخلوقات العظيمة والكثيرة؟! والله لن نكون أمامهم شيئًا مذكورًا؛ وقد كنا شيئًا غير مذكور وهذه المخلوقات كلها مذكورة؛ فأتينا آخر الخلق لنكون عبرة لتلك المخلوقات العظيمة والكثيرة.

ومن عجائب الخلق التي لم يغفل عنها ربنا أن خلق المتضادات في آن واحد فخلق الليل والنهار والداء والدواء والحار والبارد واليابس والمائع وغيرها الكثير.

وكذا متضادات ومنها ما هو وسط بينها فقد خلق الذكر والأنثى وجعل بينهم الخنثى، وخلق الدنيا والآخرة وجعل بينهما برزخًا،

وخلق المائين العذب والمالح وجعل بينهما برزخا.

ووضع كل شيء في موضعه اللائق به فجعل العينين في مكان لو جعلت في غير مكانهما لكان هذا نقص في الخلق، وكذا الأنف والأذنين والأحشاء وكل عضو في الإنسان وغير الإنسان.

حتى الجبال وزعها توزيعا عجيبًا فأبعد أكثرها عن سواحل البحار لينتفع الناس بنعم البحر، ونحاها عن مجاري الأنهار والسيول ليصل الناس الماء من مسافات بعيدة، وهذا معنى قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ [السجدة:٢٧]؛ حيث يمطر في الأرض ويسوق الماء إلى أرض بعيدة عنها لم تمطر.

فسبحانه الذي لم يترك لأحد دعوى النقص في خلقه؛ فالكل معترف بكمال خلق الله وأن العقول حائرة أمام بديع صنعه وحسن إتقانه.

ولما أكمل خلقه العظيم الواسع الآفاق المعتلي البناء الذي فيه ما لا يحصى من التعقيدات والتركيبات وكيف وازن بينها؛ لم يؤثر في ذات الله عَزَّوَجَلَّ ولا قوته؛ فلم تضعف قوته؛ بل كان سبحانه كما

ابتدأ أمره؛ لم يتعب ولا مسه اللغوب ولا حصل له إعياء؛ ولو كان خلق أضعاف أضعاف خلقه هذا لكان ذلك عليه يسيراً.

وهـذا أمر في غاية الكمال والـجلال؛ أن يصنع هـذا الصنع الكبير المتقن فكأن لم يحصل شيء مع الله جَلَّجَلَالُهُ. قال تعالى واصـفًـا هـذه المرحلة اليسيرة عليه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة ق:٣٨].

ثم بعد هذا الإتقان الكبير كتب الله الخراب على هذا الكون يوم القيامة؛ ليظهر عَزَّوَجَلَّ كمال قدرته وأنه قادر على إنهاء ما صنعه وأتقنه؛ بعكس الإنسان الضعيف الذي يصنع شيئًا ثم يعجز عن إنهائه بل ربما كان هلاك هذا الإنسان بشيء صنعه بيده!.

ويظهر كماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من ناحية كونه لا يبالي بتدمير ما صنعه وإن كان غاية في الجمال والإتقان؛ بخلاف الإنسان لو صنع شيئـًا ولو كان غير متقن لا تسمح نفسه بتدميره لأنه تعب عليه وصار عنده غاليًا نفيسًا؛ لكن الله غني عما صنعه لا يحتاج إليه ولم يتعب في خلقه ولن يتعب في تدميره وهو قادر أن يخلق ما هو

أحسن منه بأقصر مدة وأسرع زمن.

فهذا ما ظهر للناس من مخلوقات الله، وما قصّه الله علينا من مخلوقاته التي لم نرَها، مثل الجنة والنار والملائكة وغيرها.

ثم إن لله عَزَّوَجَلَّ مخلوقات أُخرى حجبها الله عنّا، إذ إن ما أظهره الله لنا من مخلوقاته كافٍ للعلم به، ولليقين بكمال قدرته على تدبير الخلق أجمعين.

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل:٨].

هذه الآية تدل على أن الله تعالى خلق مخلوقات لا نعلمها ولم يعلمنا بها؛ سواء كانت في الكون هذا أو خارجه.

وهنا ينبغي أن نعلم أن الله تعالى له مخلوقات واسعة جدا منها الكرسي الذي هو موضع قدمي الرحمن تحت العرش؛ فإنه يسع السماوات والأرض بل لن تبلغ شيئا أمامه.

وكذا الكرسي صغير أمام العرش العظيم والله أعظم وأجل.

وعليه فلما كان العرش سقف المخلوقات وتحته السماوات والأرضون؛ لا يجوز لأحد أن يعتقد أن هذا هو الكون كله؛ بل ربما

لله أكوان تحت سقف عرشه لم يعلمنا بها؛ إذ لا شأن لنا بعلمها؛ فإنه أخبرنا عن ملائكته العظام لأنهم يعلمون بنا ويستغفرون للذين آمنوا؛ فأخبرنا بما يفيدنا وبما هو مسخر لنا.

وهنا جواب لمن يسأل أين الجنة والنار؟ فيقال له: العرش سقف المخلوقات وما السماوات والأرض تحته إلا كحبة خردل؛ وبقي تحت العرش فراغ كثير فيه الجنة والنار وربما فيها مخلوقات أخرى لم يخبرنا بها الله تعالى؛ ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل:٨].

اللـــه بـــعـــد خـــلـــق الـــخـــلـــق.

وبعد أن خلق الله الخلق لم يغفل عنهم طرفة عين؛ وما زالوا تحت رعايته ورحمته الواسعة التي وسعت كل شيء.

فرزقهم الأرزاق الروحية التي أرسل بها الرسل فأنزل الكتب وبينها على ألسن الأنبياء ورزق الأنبياء قوة الإيمان وقوة العمل ليظهر على أعمالهم وحيه الذي أوحاه إليهم.

فسبحان من جعل المبين للوحي من جنس المرسل إليهم هيئته مثل هيئاتهم وجسده مثل أجسادهم حتى يعمل الناس مثل عمل الأنبياء ولا يتعذرون بمخالف طبيعة أجسادهم لأجساد المرسل إليهم إن كانوا ملائكة أو خلقا آخر من خلقه.

ولهذا قال لهم حينما طلبوا أن يكون الرسول ملكًا من الملائكة: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام:٩]؛ أي لا يصلح أن يرسل إليهم إلا من هو على هيئتهم يعلمهم أحكام دينهم؛ مثل الوضوء والصلاة.

وكان من رحمة الله أنه بعث في كل أمة وفي كل قوم نبيًا منهم بشيرًا

ونذيرًا لهم. قال تعالى﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ﴾[الرعد:٧]؛ وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤ ﴾[فاطر:٢٤]؛ ومن صفات الأنبياء أنهم كانوا أكمل أقوامهم نسبًا؛ حتى لا يجد أحد أي عذر في النفور عنهم.

فعمَّ رزقه الروحي أرجاء الأرض؛ ولما ختم الرسالات تلك ختمها برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الذي بعث في أم القرى أي أم المدن؛ لأنها أوسطهن وأقدمهن بل بدأ الله خلق الأرض من تحت الكعبة؛ فهي أم الأرض كلها وأصلها.

فناسب بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ منها لهذه الأوصاف التي لا توجد في أي مكان آخر في الدنيا؛ كذلك اختاره من خير بيت في الدنيا بيت بني هاشم .

وأرسل الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بلسان العرب، الذي هو أَجمع الألسنة وأبقاها إلى يوم الدين، ولأن العرب كانوا وسطًا بين الأمم في الأرض، فإقليمهم وسط الأقاليم، وكانوت أجلد أهل الدنيا على المشاق، فناسب أن يكون هذا الدين فيهم، بعد أن

فشلت فيه الأمم قبلهم، خاصة اليهود والنصارى، حيث بعث الله فيهم أكثر من أربعة آلاف نبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولم يُحدثوا تغييرًا في الأرض كما أحدثه العرب بعد أن بعث الله فيهم نبيًا واحدًا، عليه أزكى الصلاة والسلام.

بل لولا صدُّ اليهود والنصارى الناسَ عن دين الإسلام مع معرفتهم بأنه هو الحق، لكانت أغلب ديار الأرض ديارَ إسلامٍ وسلام.

لكن مع كيد اليهود والنصارى العظيم الذي يكيدونه لأهل الإسلام، فما زال للعرب خاصة ولأهل الإسلام وجودهم العظيم في البشر، وذلك لأنهم مادةُ هذه الأمة، ومادةُ هذا الدين، الذي لن ينتهي ولو كره الكافرون، ولو كره المنافقون.

فسبحان الله الذي رزق العرب بهذا الدين ورزق البشرية بالعرب وأعلى رزق في الدنيا هو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فهو رزق روحي لا مثيل له؛ رغم أنه الأخير في الأنبياء لكنه أعظم نعمة عُرِفت وأشرف رزق عُرِف؛ والحمد لله رب العالمين.

وأما رزقه للأجساد فهو لم ينفد فما زال في كل يوم في زيادة؛ فكلما مر الوقت كلما زاد الخلق وزادت الأرزاق لهم فيزيد فضل الله تعالى، وينقصها أحيانًا؛ ليعلموا نعم الله عليهم؛ وكذلك يبتلي الله بالنقص أقوامًا تمحيصًا لهم أو عقوبة لهم؛ إلا أن فضله دائم وخزائنه ملأى؛ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يده"[1]. أي لم ينقص.

وكما أنه رزقه يصيب من أطاعه فهو كذلك يصيب من عصاه؛ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء:٢٠]؛ وحتى الشياطين رغم كثرتها وعتوها ترزق من رزق الله تعالى؛ لم يكن رزقه عنها محظورًا؛ فإن بيوت المنافقين والكافرين لهم مفتوحة يشاركونهم في كل شيء؛ فتوهبهم الوسوسة ويهبونها الطعام!.

فرزق الله واسع حتى أن رزقه يستمر لأكفر أمم الأرض وأعتاها

---

(١)صحيح البخاري (٦/ ٧٣)رقم٤٦٨٤.

في الكفر والفسوق والعصيان وهم قوم يأجوج ومأجوج؛ فلا يزالون في تكاثر في الأنفس وكلما زادوا زاد رزق الله لهم؛ وهم مع ذلك لا يذكرون خالقهم بكلمة إلا كلمة سيقولونها قبل مخرجهم على الناس في زمن عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيقولون نرجع غدًا إن شاء الله أي لإكمال حفر السد الذي بيننا وبينهم .

فتأمل حال تلك الأمم طبعوا على الكفر عن بكرة أبيهم وهم في رزق واسع خاصة رزق البنين؛ فإنه لا يموت الرجل منهم حتى يكون له من ولده من صلبه ألف نسمة!.

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعمائة ألف أمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف عين تطرف بين يديه من صلبه**»[1]؛ فتأمل هذا العدد الكثير الذي لايحصيه إلا الله تعالى وسعة رزق الله لهم؛ وهم على هذه الحال منذ وجودهم إلى انتهائهم في آخر الزمان؛ حتى أنهم إذا خرجوا إلى

---

(١)السنن الواردة في الفتن للداني (٦/ ١٢١٥)رقم ٦٧٦. المعجم الأوسط (٤/ ١٥٥)رقم٣٨٥٥.

أهل جهة الأرض التي نحن فيها أكلوا وشربوا عليهم رزقهم حتى يجوع عيسى بن مريم وأصحابه في جبل الطور؛ فيفرجها الله تعالى عنهم؛ فيقضي على هاتين الأمتين الخبيثتين فتصيران رزقا لأنعام الأرض حتى إنها لتسمن من أكل لحومهم.

لكن هذا في هذه الحياة وفي الآخرة سيكون رزقهم دار الجحيم يصلونها وبئس المصير.

وأما سائر المخلوقات فرزقها يأتيها على التمام إلا أنه ينقص رزقها بسبب ذنوب بني آدم وهو الفساد الذي عناه الله في كتابه[1]؛ فقال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

ولم يترك الله هذه المخلوقات الكثيرة دون مراقبة لها؛ فلا يصير عليها شيء ولا يصدر منها شيء إلا بإذنه ومعرفته معرفة أكثر من معرفة الفاعلين لها.

---

(١)تفسير الطبري (١٨/ ٥١٢).

وهنا ينبغي للمسلم أن يراقب مراقبة الله له حتى يكون على وجل منه أن يعصيه أو يفعل ما لا يحبه ويرضاه؛ فإن الغفلة عن مراقبة الله لنا ورؤيته لنا سبب كبير في وقوع المعاصي واستمرارها.

بل انعدام هذا عند المعصية ذهاب للإيمان الذي هو الإيمان بمراقبة الله للفاعل حين فعل المعصية، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**»[1].

فنزع من المؤمن الإيمان حين فعل هذه المعاصي لأنه انعدم عنده حينها اعتقاد رؤية الله له ووجود الله فوقه؛ ولو أراد أن يفعل معصية ثم تذكر أن الله أقرب إليه من حبل الوريد لترك المعصية وموطنها خوفا وحياء من الله تعالى.

---

(١)صحيح البخاري (٣/ ١٣٦)رقم٢٤٧٥.

ولما سأل رجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن كشف عورته وهو منفرد لا أحد عنده قال: فإن كان أحدنا خاليا؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**فالله أحق أن يستحيا منه من الناس**»[1]. وهذا من تمام المراقبة لله أن تترك التعري أمامه لغير حاجة.

ومن عود نفسه على مراقبة الله حتى في المباحات أعانه الله على مراقبته في مواطن العصيان والفجور فحفظه من الوقوع فيها.

وهنا رسالة للجبارين الذي يبطشون بعباد الله بكل جرأة على الله وعلى أمره؛ بأن الله ينظر إليهم على الدوام لا يخفون عنه؛ ولا تخفى عليه أعمالهم وليس بغافل عن جبروتهم وطغيانهم؛ وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة:٧٤].

ولهذا لما أمر الله موسى وهارون بمقابلة أكبر طواغيت الدنيا أخبرهما بأنه معهما يسمع ويرى؛ فكما أن ذلك تقوية لموسى وهارون ولمن اقتدى بهما في الصدع بالحق أمام الطواغيت؛ كذلك هو تذكير للطواغيت بأن الله يسمعهم ويراهم؛ فليكونوا

---

(١)سنن أبي داود (٤/ ٤٠)رقم٤٠١٧.

على حذر من الملك الجبار عَزَّوَجَلَّ؛ ولا تغرنهم ألقابهم التي تلقبوا بها زورا وكذبًا بأنهم ملوك وحكام وما علموا أن هذه الألقاب لا حقيقة لها؛ إذ هم عبيد لله فقط؛ ولا يمكن للعبد أن يكون ملكا أو حاكما؛ فلا يجتمع الضدان (عبد وملك) ولهذا لم يختر الصحابة هذه الأسماء للخلفاء الراشدين بل اختاروا لهم لقب الخليفة أو أمير المؤمنين. لأنهما لقبان لا كذب فيهما؛ والرئيس في قوم إذا بدأ بالكذب في اختيار لقبه كان قليل التوفيق.

ومما يسلي العبد في وقت عبادته لله أن الله يراه ولا يغفل عن عبادته له؛ بل كلما ذكر الله ذكره الله في نفسه وفي الملأ الأعلى.

واعلم أخي وفقك الله- أن الله تعالى ابتلانا بهذه الحياة وجعل الزمن فيها غير الزمن عنده؛ وبعض أفعاله وأقداره فينا تكون عنده على حساب الزمن عنده لا على حساب الزمن فينا؛ وذلك مثل زمن ابتلاء الله لعباده الصالحين؛ وزمن إمهال الله لعباده الجاحدين المفسدين في الأرض؛ وفي هذا إجابة عن سؤال: لماذا يطيل الله البلاء على أهل الإيمان ويطيل البقاء والرخاء على أهل العصيان رغم استعجال الفريقين بالعذاب لأهل العصيان؟

فالجواب من كتاب الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج:٤٧]؛ فهنا أجاب على استعجال الكفار بالعذاب بأن الزمن عنده غير الزمن عندهم؛ فاليوم عنده كألف سنة؛ وفترة طغيانهم لن تأتي عشر اليوم عنده؛ وهذا ما حصل مع كفار قريش حيث كانوا يستعجلون العذاب لما رأوا تأخره بعد إنذار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لهم؛ فلما رأوا أن السنوات تمر عليهم دون أن يأتيهم ما وعدهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من العذاب زادوا في تكذيبه واستعجال العذاب؛ وما علموا أن الله تعالى إنما أمهلهم وقتا يسيرا بحسابه هو؛ فما مرت خمس عشرة سنة إلا وعاقبهم الله ببدر بعذاب أليم قطع الله بهم دابرهم ونكس رايتهم وأخزاهم؛ وما عسى زمن هذه السنوات الخمسة عشر أمام زمن اليوم عند الله تعالى؟!.

بل عند الله يوم أكثر من ذلك وهو خمسون ألف سنة؛ وقد ذكره حين استعجلوا بالعذاب؛ فقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ

ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج:١ - ٧].

وهذا مثل الأول فإنه تعالى لا يعجل العذاب لحساب الزمن عندنا ولكن يؤخره لحساب الزمن عنده ومع ذلك فإن هذا التأخير ليس ببعيد عند الله تعالى بل هو كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

وهنا يقف المتأمل في هذا الأمر معظما لله تعالى؛ يتأمل كيف يحب الله العذر فيمهل ليزيد في الإعذار، ولا يهلك على الله إلا هالك، ويملي ليزيد الذين ظلموا عذابًا فوق العذاب، فلا يؤخر الله العقوبة على أعدائه لكرامة، ولا يعجلها لملامة، بل أمره كما قال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران:١٧٨]؛ وقال رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» قال: ثم قرأ: " ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ

أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢][(١)].

فعلى المؤمن أن يوقن أن نصر الله لأهل الإسلام موجود في كل وقت وحين؛ لا يتخلف نصره لهم طرفة عين؛ وإنما الزمن الذي ينتشي فيه الكفر وأهله إنما هو جزء من زمن المعركة الواحدة التي تنتهي بانتصار الحق وأهله؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾[طه:١٣٢]. و ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٨]؛ فموسى قال هذا الكلام بعد بطش فرعون وقومه ببني إسرائيل مئات السنين. إذن فلمَ العجلة يا أهل الإسلام؟!.

فإن زمن وجودنا في هذه الحياة زمن قصير وسنن الله الكونية التي لا تتبدل تحسب بالزمن الطويل عند الله تعالى. وقد ذكروا أن سلطة فرعون كانت أكثر من أربعمئة سنة[(٢)]، ثم أهلكه الله.

---

(١)صحيح البخاري (٦/ ٧٤)رقم٤٦٨٦.

(٢)تفسير مجاهد (ص: ٥٢٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٣٣٦).

وكذا النمرود بلغ زمن ملكه أربعمئة سنة ثم مكث يتعذب في الدنيا أربعمئة سنة أيضًا[1]؛ ومع طول هذه المدة بحسابنا فإنها عند الله لا تساوي نصف يوم في اليوم الذي هو كألف سنة؛ أما اليوم الذي هو عنده مقدار خمسين ألف سنة؛ فلن يبلغ زمن جبروت فرعون عشر معشار هذا اليوم، وكذا زمن جبروت النمرود.

فلا تظنن أيها المسلم أن طول زمن البلاء على أهل الإسلام أنه دليل الهزيمة؛ بل ذلك دليل الابتلاء للطرفين؛ لأهل الإسلام ولأهل الإجرام؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

واعلم أن كل إيذاء للمسلمين فإنما هو ايذاء لله تعالى، حيث عَصَى اللهَ أهلُ الكفر بإيذائهم لأهل الإسلام؛ وكذلك تجد الكافرين يزيدون على إيذاء الله بظلم أوليائه فيؤذونه تعالى في ذاته وكماله. فيدعون له الولد والصاحبة وهي أعظم سبة صدرت من

تفسير الطبري (١/ ٦٤٧).

(١)تفسير الطبري (٤/ ٥٧٣).

مخلوقين حتى إن المخلوقات لا تطيق سماعها: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ ﴾[مريم:٨٨ – ٩٢]

فتأمل السماء بسعتها وصلابتها وشدتها تتفطر لسماع هذه السبة الخبيثة التي أصدرها أضعف المخلوقات تجاه خالقه، وتنشق الأرض الواسعة السميكة الشديدة، وتنهد هذه الجبال الراسية العالية إذا سمعت هذه الفرية!.

الأمر والله شديد أَيَّمَا شدة!، والفكر يحار كيف تجرأ هذا اللسان الضعيف على هذا القول؟!، وكيف رضي هذا الاعتقاد قلبُ إنسانٍ وهو مضغة ضعيفة؟!.

فليس لهم ألسنة من حجارة وقلوب من صخور حتى لا تتجرأ على هذا القول واعتقاده؟!.

لكن الأمر عجيب أن يتفطر وينشق وينهد أشد المخلوقات صلابة لسماع هذا القول، ثم يقوله ويعتقده مضغتان من لحم

ضعيفتان (القلب واللسان) دون أدنى خوف من الله تعالى.

وصدق ربي حين وصف بعض الناس فقال﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[البقرة:٧٤].

فتأمل يا أخي شدة إيذاء الناس لله تعالى؛ وهو صابر عليهم، بل يرزقهم كل أنواع الأرزاق الحسية، ويكثرهم ويسلطهم على كثير من العباد والبلاد.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: "ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم"[(١)]. فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هذا القول أشد أذى؛ ومع ذلك فقد قابلهم الله في هذه الحياة بالرزق والعافية؛ لكن في الدار الآخرة ينتظرهم أشد العذاب وأعظم النكال.

---

(١)صحيح البخاري (٨/ ٢٥)رقم٦٠٩٩. صحيح مسلم (٤/ ٢١٦٠)(٢٨٠٤).

وكذا المنافقون يتصفون بإيذاء الله تعالى وإيذاء المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾[الأحزاب:٥٧،٥٨]فيكفيهم ما توعدهم الله به في هذه الآيات وغيرها وهو حالٌّ بهم قريبا لا محالة.

واعلم يا أخي أن الله تعالى لم يترك عباده هملا دون وحي بين واضح سهل غير صعب على أحد؛ فقد أنزل الوحي الذي يفهم أكثره الناس بدون الحاجة إلى تفسير من أحد؛ خاصة قضايا الإنسان المهمة؛ مثل قضية التوحيد والإيمان بالله وباليوم الآخر وبالملائكة وبالرسل وبالكتب وبالقدر خيره وشره، وأوضح معنى الشهادتين وباقي أركان الإسلام إيضاحا لم يستصعب على مسلم.

ولهذا كانت طريقة الوحي التي جاء بها القرآن الكريم هي طريقة النثر لا الشعر؛ مع أن الشعر كان رمزًا للفصاحة عند العرب.

إلا أن الشعر كانت فيه أمور نزه الله عنها كتابه وكلام نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

فمنها:

ـ أن الشعر لم يكن يفهمه كل أحد؛ فقد يقول الشاعر كلامًا ويفهمه السامع على عكس ما أراده الشاعر نفسه؛ أما وحي الله كتابًا وسنة فأكثره يفهم على مراد الله كما أنزله لأول وهلة؛ وقليل منه ما يشكل وقد بُيّن بيانا وافيا.

ـ أن الشاعر يحتاج لكلمات غريبة ليكمل بها عجز البيت لتكون قافية واحدة معه؛ والوحي يكمل الكلام بأيسر الألفاظ التي تؤدي مقصود الكلام دون تكلف.

ـ ولأجل الوزن يخل الشاعر ببعض قواعد العربية. فيؤدي هذا لقلة بيانه وزيادة إشكاله على سامعه.

ـ أن الشعر أكثر ما وضع للمدح والتفاخر والتعصب وهجاء الآخرين؛ وكذا الغزل ووصف عورات النساء كما في شعر امرؤ القيس وغيره من سفهاء الجاهلية، فنزه الوحي عن مشابهة نظم أكثره فيما لا يحبه ويرضاه.

ـ أن الشعراء فيهم الكذب الكثير؛ فأكثرهم لا يطيب له الشعر إلا بالكذب؛ وكان العرب يتسامحون بالكذب في الشعر وقل أن

يتسامحوا بالكذب في النثر، فنزه الله كتابه أن يختار له أردأ أساليب العرب في الصدق.

إذن فاختار الله أسهل الأساليب في خطاب عباده ونزه رسوله عن الأساليب المعقدة حتى قبل النبوة؛ فتأمل حياة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قبل النبوة لم يكن يحسن الشعر وكان يحسن النثر لأنه معلوم المبنى والمعنى عند كل العرب: ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[يس:٦٩، ٧٠]

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾أي في صغر إلى أن أوتي النبوة.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ﴾ أي قبل النبوة وبعد النبوة.

فلما كان الشعر غير مبين؛ قال تعالى في القرآن ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ فالشعر لا يصلح أن يكون ذكرا؛ ولا يصلح أن يكون بيانًا وافيًا.

فكل آيات الله في كتابه بينة ظاهرة ولهذا افتتح الله سورة الشعراء ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾[الشعراء:١، ٢]؛ واختتمها بذم الشعر وأهله إلا من استثنى منهم.

فناسب ذكر بيان الكتاب في مقدمة سورة الشعراء؛ وأنه كان نثراً لا نظمًا كحال الشعر الذي لا يؤدي المعاني على الوجه الأكمل والأبين.

بل النثر فيه ميزة لن تجدها في الشعر؛ وهو أنه يلحن بألحان كثيرة، وكلما كان النثر سلسلا كانت الألحان له كثيرة؛ وأسلس النثر في الوجود كلام الله تعالى فإن له ألحانا لا تعد ولا تحصى؛ وهذا من رحمة الله تعالى بنا؛ حتى نكون على ارتباط بكتابه؛ فبعض الناس يعجبه لحنٌ وبعضهم يعجبه لحن آخر أو ألحان؛ فتختلف الأذواق عندهم؛ بل البعض يعجبه لحنٌ فيمل منه بعد فترة من الزمن؛ فيسمع لحنًا آخرًا فيعجبه؛ حتى يربطه الله بكتابه فلا يمل سماعه. ولهذا من الخطأ أن تزهد الناس بصوت فلان لأنك تختلف معه أو لا يعجبك لحنه؛ وهم من المعجبين بصوته؛ فلا تذكر مساوئه لأحد فلا أحد ليس عنده مساوئ سواء كثرت أو قلت؛ كبرت أو صغرت؛ فتكون ممن حرمهم استماع كلام الله تعالى، واسمع لكلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حينما ذكر أنواع الذين يقرأون كلام الله تعالى، فقال: "ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن: كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر"[1]. أي داخله خبيث وريحه طيب لأنه يريح السامعين بكلام الله تعالى فيطيب مسامعهم وإن كان منافقًا.

---

(١)صحيح البخاري (٦/ ١٩٧)رقم٥٠٥٩

الله في يوم القيامة

وإذا أراد الله أن ينهي هذه الحياة الدنيا؛ أمر واحدًا من ملائكته فينفخ نفخة واحدة يتغير منها الكون كله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ابراهيم:٤٨].

فتأمل معي بنفخة هواء واحدة يُدَمِّرُ هذا الكون كله حتى تتغير معالمه تمامًا؛ فتتشقق السماوات الشداد، وتنسف الجبال كلها؛ وتتفجر البحار ويصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

ولا يؤثر مرور هذه النفخة في السماوات التي سمك الواحدة منهن مسيرة خمسمئة سنة حتى إنها تصل إلى الأرض فتنسف جميع جبالها!.

فإذا كانت هذه نفخة ملك؛ فما هي قوة جسد هذا الملك؛ وأعظم منها قوة الله تعالى.

إن الله تعالى يبرهن على قوته المطلقة بإظهار قوة عبد من عباده

كما هو الحال في قوة نافخ الصور إسرافيل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وبعد هذه النفخة التي أسكتت كل متكلم في الخلق؛ وأوقفت كل متحرك منهم؛ يموت نافخ الصور؛ حتى لا يسمع له ولا للخلق صوت نفس، ولا حركة عضو.

الكل سكن، الكل مات، الكل خمد، الكل هلك، الكل فني إلا الله الواحد القهار.

أين الخلق كلهم برهم وفاجرهم؟!

الكل هلك!.

حتى إنه استغنى عن تسبيح الملائكة له واجتهادهم في عبادته وطاعته؛ فأهلكهم جميعًا؛ ليريهم أنه غني وأنه باقٍ وأن موت ملائكته الموكلين بأعمال كثيرة ما نقص ذلك من قدرته وسطوته وجبروته.

وبينما الخلق على تلك الحالة هلكى، والخالق على كماله وجلاله؛ فينادي بصوته؛ لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد من خلقه الكل سكت حتى الأرض التي عليها خلقه الأموات لا تجيب فقد سكتت؛ ثم ينادي الثانية: لمن الملك اليوم؟ فلا

مجيب. ثم ينادي الثالثة: لمن الملك اليوم؟ فلا مجيب أيضًا.

ثم يجيب نفسه بصوت العزة والجلال والكمال والكبرياء؛ فيقول: لله الواحد القهار.

ما أعظمه من مشهد؛ فصوت الرب يملأ الأكوان كلها ولا مجيب له؛ حتى خير خلقه قد هلكوا: الأنبياء وسيدهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والملائكة وسيدهم جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ كرام خلقه عليه لن يجيبوا!.

فيظهر الله عَزَّوَجَلَّ حينها كمال ملكه كما كان قبل أن يخلق الخلق؛ فلن يدعي أحد ملك شيء؛ لأن الميت الهالك غير مالك.

ويظهر الله أحديته في كل شيء؛ وأنه حينما أهلك الخلق لم يُبق لأحد شبهة تقول إن لله مساعدين أو شركاء في تدبير الخلق؛ فأهلك الأبرار والفجار لمقاصد؛ منها: هذا المقصد الأسمى.

ويُظهر الله قهره للخلق، فقد قهرهم بالموت، حتى لم يَفُتْهُ واحدٌ منهم، رغم كثرتهم وكثرة أنواعهم التي لا يُحصيها إلا هو. ولهذا ناسب أن يكون الجواب على نفسه: (لله الواحد القهار)، فبقي الواحد جل جلاله حيًّا، قائمًا، غنيًّا، لا يُبالي بغيره، وبقي

القهار الذي قهر الجميع، حتى خيار عباده من الملائكة وبني آدم.

ثم يظهر الله كماله؛ فيعيدهم كما بدأهم بغير الأسباب التي خلق بها الخلق؛ وإنما يقول لهم قوموا فإذا هم قيام ينظرون؛ فيكون هذا الخلق الثاني أعجب من الخلق الأول لأن كل شيء سيعود كما كان بلحظة واحدة؛ الملائكة والإنس والجن والشياطين وكل خلق من خلقه دبت فيه حياة في هذه الدنيا حتى البعوض والنمل والذباب .

وهنا يظهر للخلق أن الله حينما خلق هذا الكون في ستة أيام ليس لعجز منه على مدة أقل من ستة أيام؛ فإنه قادر على خلق الكون بلحظة واحدة وهو ما كان في يوم المعاد حيث أعاد خلقهم بلحظة واحد.

فإذا أحياهم تعلقت القلوب والأرواح والأجساد بالله تعالى، منتظرةً منه الرحمة وأكثرها منتظرة منه العقاب؛ والله عَزَّوَجَلَّ في ذلك اليوم سيغضب غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا بعده مثله.

فكيف لا يغضب هذا الغضب وقد جاءه المفترون عليه وعلى دينه وعلى أوليائه.

كيف لا يغضب وقد جاءه إبليس وجنوده الذين أضلوا كثيرا من عباده وحرفوهم عن الفطرة السوية.

كيف لا يغضب وقد جاءه المظلومون وظالموهم؛ جاءه القتلى

ظلمًا وما أكثرهم حيث سيبلغ عددهم ما يسد الآفاق؛ بل ما لا يحصيه إلا الله تعالى، جاءوه ومنهم الأطفال والنساء والشيوخ يصيحون يا رب سل هؤلاء لِمَ ظلمونا وقتلونا؟!.

كيف لا يغضب وقد جاءه أكلة الأموال بالباطل ومغتصبو الحقوق والأعـراض الذين كانوا يعرفون مغبة صنعهم وأعمالهم وهم عنه معرضون ولله محاربون.

فيرحم الله من شـاء من عباده ويسخط على من يشاء فيستقر الفريقان كل في داره التي كتبها الله له بسبب عمله، وينفذ فيهم وعده ووعيده؛ حتى وقف الفريقان على صدق الله وعده ووعيده فيهم وأن كلامه في الدنيا لم يكن بالهزل بل كان هو الفصل الذي أظهر الله صدقه على التمام يوم الفصل.

هناك الكل صدّق بما في الكتاب والسنة، الكل آمن، الكل أيقن، الكل ليس في قلوبهم شك ولا نفاق ولا شقاق. خضعت القلوب والرؤوس والجوارح والأجساد والأرواح.

لكن حيث ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾، فظهر الحق كاملًا، وزهق الباطل حتى لم يَبقَ منه حرف واحد.

الله بعد يوم القيامة

أما ما جاء من وصف الله بعد الانتهاء من حساب العباد يوم القيامة واستقرار الفريقين فريق في الجنة وفريق في السعير؛ وذلك بعدما يدخل أصحاب الأعراف الجنة، ويخرج من النار من شاء الله أن يخرج منها ويدخل الجنة؛ فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يلتفت إلى أهل النار الخالدين فيها؛ بل ينساهم كما نسوه ونسوا لقاءه ونسوا آياته؛ فإنه سيتركهم في جهنم تتولى جهنم نكالهم مع ملائكة العذاب الذين يحرسون ويقومون على جهنم.

أما أهل جنته فيبدأ معهم سبحانه بمرحلة كبيرة لا تنقطع ومدد زمنية لا تنتهي؛ فإنه سبحانه يلقاهم وينظر إليهم وينظرون إليه ويسمعون كلامه ويسمعون صوته بالقرآن يتلوه عليهم.

يكون لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه أعلى نعيم في الجنة؛ وهو نعيم لا ينقطع أبداً؛ فتأمل معي وهم في تلك الحياة الخالدة الدائمة وهم يلقون الله فيها في كل يوم جمعة[1]؛ وهم يعبدونه في الجنة لكن عبادتهم لله من

---

(١) انظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (ص: ٣١٣- ٣٢٧)

نعيم الجنة؛ فكما أن عبادة الله في الدنيا نعيم الصالحين كذلك سينالون هذا النعيم في الجنة لكن دون تعب أو مشقة؛ فيلهمون التسبيح كما يلهم أهل الجنة النفس. كما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ[1].

فعبادة الله لن تنقطع فالجنة تعبد الله بتنعيم ضيوفه فيها، وأهل الجنة يعبدون الله بالتسبيح، والنار تعبد الله بتعذيب أعدائه، والملائكة يعبدون الله يسبحونه.

فتأمل آخر سورة الزمر بعد أن ذكر الله دخول أهل النار زمرا إليها ودخول أهل الجنة زمرا إليها ذكر أن ملائكته مستمرون بعبادة الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[الزمر:٧٥] يصلون حول عرش الله شكرا له[2].

---

(١)صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٠) رقم٢٨٣٥).

(٢)تفسير الطبري (٢٠/ ٢٧٢).

ويأتون لأهل الجنة يسلمون عليهم ليزداد أهل الجنة نعيما فوق نعيمهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣،٢٤]فيعبدون الله بزيارة أهل الجنة.

كذلك تزاور أهل الجنة بينهم إنما هو عبادة يزدادون بها نعيمًا؛ كما أن زيارة أهل الإيمان بعضهم بعضا في هذه الحياة راحةٌ ونعيم.

فالله سيكون معبودا لا يعبد غيره في الآخرة؛ فعاد الحق إلى ما كان عليه قبل أن يخلق الله من يعصيه؛ فصار معبودا في الآخرة لا يخالف ولا يؤذى من أحد، ولا ينازع في شيء من خصائصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. كل ما في الآخرة أعمال أهل الحسنات من عبادات ومعاملات.

وبهذا تمّت هذه الرسالة التي أراد بها صاحبها ذِكر شيءٍ من وصف الله خالقه ورازقه وإلهه الواحد القهّار. عسى الله أن يرحمه بها رحمة الأبرار، ويرحم من قرأها ونشرها بين العباد.

والحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عصر يوم الجمعة ٣ / ذي الحجة / ١٤٤٦هـ في المدينة المنورة على صاحبها أزكى الصلاة والسلام.

لِلهِ الحَمْدُ